رويّ الذال

في موقف وقف الحمام عليهم

وقال يمدح مساور بن محمد الروميّ:

[الكامل]

أَمُسَاوِرٌ أَمْ قَرْنُ شَمْسٍ هٰذَا
أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الأُسْتَاذَا[١]
شِمْ مَا ٱنْتَضَيْتَ فَقَدْ تَرَكْتَ ذُبَابَهُ
قِطَعاً، وَقَدْ تَرَكَ الْعِبَادَ جُذَاذا[٢]
هَبْكَ ٱبْنَ يَزْدَاذٍ حَطَمْتَ وَصَحْبَهُ
أَتَرى ٱلْوَرَى أَضْحَوْا بَنِي يَزْدَاذَا[٣]
غَادَرْتَ أَوْجُهَهُمْ بِحَيْثُ لَقِيتَهُمْ
أَقْفَاءَهُمْ وَكُبُودَهُمْ أَفْلَاذَا[٤]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. شرع الشاعر يمدح مساوراً دون مقدّمات، أمام ظلّ يشعّ نوراً وبهاءً، فيعمد الشاعر إلى الاستفهام التقريري، إنه يرى أمراً يقدم الوزير، ولشدّة إعجابه بشخصه هل القادم مساور أو قرن الشمس، بإطلالتها الأولى اللطيفة المأنوسة أم أن القادم أسد مهول تبدو مخايل المهابة منه والشجاعة والقوّة، إنه الملك الحقيقي.

(٢) شم: فعل أمر من شام السيف: أغمده. انتضى السيف: سلّه من غمده. ذباب السيف: حدّه وشفرته. الجُذاذ، الواحدة جُذاذة: القطعة المكسورة. يخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه أن يُغمد سيفه الذي أصابه خلل لكثرة استعماله، فقد أهلك الكثير من البشر باستعماله وجعلهم جُذاذاً تنتشر على الصعيد، ممّا يدلّ على بطولته وشجاعته وقوّته.

(٣) و (٤) هبك: أحسبت نفسك. أترى: أتظنّ. يُخاطب الشاعر ممدوحه لقد فتك بابن =

فِـي مَـوْقِـفٍ ٱلْـحِـمَـامُ عَـلَـيْـهِـمُ
فـي ضَـنْـكِـهِ وَٱسْـتَـحْـوَذَ ٱسْـتِـحْـوَاذَا[١]
جَـمَـدَتْ نُـفُـوسُـهُـمُ فَـلَـمَّـا جِـئْـتَـهَـا
أَجْـرَيْـتَـهَـا وَسَـقَـيْـتَـهَـا ٱلْـفُـولاذَا[٢]
لَـمَّـا رَأَوْكَ رَأَوْا أَبَـاكَ مُـحَـمَّـداً
فِـي جَـوْشَـنٍ وَأَخَـا أَبِـيـكَ مُـعَـاذَا[٣]
أَعْـجَـلْـتَ ٱلْـسُـنَـهُـمْ بِـضَـرْبٍ رِقَـابِـهِـمْ
عَـنْ قَـوْلِـهِـمْ : لَا فَـارِسٌ إِلَّا ذَا؟[٤]

= يزداذ وأتباعه فأفناهم بنقمته وسيفه، ويسأله هل يظن أن سائر الناس أتباع لعدوّه ليُعاملهم كما عامله وعامل أتباعه فيغنيهم؟ ولقد أنزلت بهم هزيمة نكراء حيث التقاهم وتركهم لا تُعرف وجوههم من أقفائهم لما ألمّ بهم من تجريح وتقتيل كيفما اتّفق له يضرب يميناً وشمالاً وقد تملّكه الغضب، فإذا بهم أشلاء مبعثرة وأكباد ممزّقة تغطّي الأرض.

(١) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الضنك: الضيق. استحوذ: استولى. إنه منظر تقشعرّ له الأبدان، لقد سيطر الموت عليهم وشلّ حركتهم لضيق المكان، ولقوّة الفتك بهم، فاستسلموا لمصيرهم المحتوم الحزين فقضوا عن بِكْرَة أبيهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. لقد صمّم القوم على القتال وشدّوا عزائمهم، ولكن المفاجأة كانت قاسية فإذا بمساور وسط القوم يُمعن فيهم تقتيلاً ويسقي سيفه الفولاذي من دمائهم ليشتدّ ويقوى، فكلما أمعن تقتيلاً بهم زاد قوّة.

(٣) الجوشن: الدرع. وحالما طلع الممدوح على أعدائه تمثل لهم أبوه وعمه، وهذا يعني أنهم قد لاقوا منهما ما يلاقونه من الابن قتلاً وفتكاً؛ فكان الابن صورة حيَّة لأبيه تتمثل فيه الشجاعة والإقدام والكرم وأشرف الفضائل وأنبلها.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. إنها إطلالة تُوحي بأن صاحبها من الطراز الأول، وكاد القوم يُقرّون للممدوح ببطولته وشجاعته وفروسيّته ولكنه لم يُمهلهم ليُبدوا إعجابهم فإذا بسيفه يُمعن فيهم تقتيلاً، ولذا فلم يتمكّنوا من ذلك.

غِـرٌّ طَـلَـعْـتَ عَـلَـيْـهِ طِـلْـعَـةَ عَـارِضٍ
مَـطَـرَ الـمَـنَـايَـا وَابِـلاً وَرَذَاذَا[١]
سَـدَّتْ عَـلَـيْـهِ الـمَـشْـرَفِـيَّـةُ طُـرْقَـهُ
فَـانْـصَـاعَ لَا حَـلَـبـاً وَلَا بَـغْـدَاذَا[٢]
طَـلَـبَ ٱلْإِمَـارَةَ فِـي الـثُّـغُـورِ وَنَـشْـؤُهُ
مَـا بَـيْـنَ كَـرْخَـايَـا إلـى كَـلْـوَاذَا[٣]
فَـكَـأَنَّـهُ حَـسِـبَ ٱلْأَسِـنَّـةَ حُـلْـوَةً
أَوْ ظَـنَّـهَـا ٱلْـبَـرْنِـيَّ وَالآزَاذَا[٤]
لَـمْ يَـلْـقَ قَـبْـلَـكَ مَـنْ إذَا ٱخْـتَـلَـفَ ٱلْـقَـنَـا
جَـعَـلَ الـطِّـعَـانَ مِـنَ الـطِّـعَـانِ مَـلَاذَا[٥]

---

(١) و (٢) الغرّ: الذي لم يجرّب الأمور بعد، يقصد بذلك ابن يزداذ. العارض: السحاب. المنايا: الموت. الوابل: المطر المنهمر. الرذاذ: المطر الخفيف إنها المفاجأة التي لم يحسب لها ابن يزداذ حساباً، فإذا به وجهاً لوجه أمام موت محتّم؛ فالكفتان غير متكافئتين؛ غِرّ لا يُحسن الطعان والضرب وبطل من الطراز الأول النادر. إنه عارض يُمطر موتاً بعنف لا يرحم، ولقد حاول الفرار، فإذا بالأبواب تُغلق عليه دون ذلك وسيف يلتهب بجمر الغضب، ولا ملاذ له في حلب أو بغداد، وثمَّة ملجأ واحد إنه الاستسلام إلى قدر محتّم.

(٣) و (٤) ورد البيتان المتواليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. كرخايا وكلواذا من قرى سواد العراق الزراعية. ينعى المتنبي على يزداذ أنه طمع في الإمارة على الثغور، تلك الديار التي يجب أن يتوفّر عليها أقوى الأبطال وأشجع الشجعان ليقفوا في وجوه الأعداء لحماية المسلمين من شرورهم، وهو لا يصلح فقد نشأ في سواد العراق ولم يُحسن قتالاً، وقد تعوّد أكل البرنيّ والآزاذ من الرّطب والتمور وقد تعوّد الزراعة في دياره، والحرب ليس سهلاً، بل له رجاله الميامين.

(٥) القنا: الرماح. الملاذ: الملجأ. يُخاطب الشاعر أيضاً يزداذ أن الانتصار متداول بين الخصمين إذا كانا كفوءين في النزال، ينتصر هذا مرة وينتصر ذاك مرة أخرى. وحقيقة الأمر أن البطل لا يفرّ من المعركة وعليه أن يحمي نفسه بمواجهة مصيره، فحرصه على الحياة يُحتّم عليه مجابهة الموت بشجاعة، عندئذٍ تُوهب له الحياة بانتصاره على عدوه.

مَـنْ لَا تُـوَافِـقُـهُ ٱلْـحَـيَـاةُ وَطِـيـبُـهَـا
حَـتَّـى يُـوَافِـقَ عَـزْمُـهُ الإِنْـفَـاذَا[١]
مُـتَـعَـوِّداً لُـبْـسَ الـدُّرُوعِ يَـخَـالُـهَـا
فِـي ٱلْـبَـرْدِ خَـزًّا وَٱلْـهَـوَاجِـرِ لَاذَا[٢]
أَعْـجِـبْ بَـأَخْـذِكَـهُ، وَأَعْـجَـبُ مِـنْـكُـمَـا
أَنْ لَا تَـكُـونَ لِـمِـثْـلِـهِ أَخَّـاذَا[٣]

(١) يأتي الشاعر بحكمة مفادها أن لذّة طعم السعادة في الحياة المبادرة إلى إنفاذ المرء رغبته، فالتردّد لا ينفع، والتقهقر إلى الوراء انتكاسة قاتلة، تعني الفشل الذريع، لذا لا ينعم المرء بالمجد إلّا في اقتحام المصاعب والمخاطر.

(٢) الخزّ من الثياب: الغليظ تصنع من الحرير. اللّاذ من الأثواب: الرقيق من الكتان. الهواجر، المفرد هاجرة: الحرّ الشديد عند الظهيرة في الصيف. يُخاطب الشاعر المنكود الحظّ أن لبس الدروع للقتال وليس لحماية الجسد من البرد القارس أو حرّ الهاجرة اللاهب، ومن لم يتعوّد ذلك فخير له أن يتخلّى عن ذلك لمن يستحقّه بجدارة.

(٣) يخاطب الشاعر ممدوحه مؤكداً على أنه مثار إعجابه، فشجاعته سمحت له أن يقضي على خصمه رغم ما أعدّ له من جند وعتاد، وهو يُعجب بهما كليهما لاختلاف حاليهما، ولو لم يفعل ما فعله لكان مثار استغراب ودهشة الشاعر، فهو على يقين وثقة من شجاعة ممدوحه وقوّته.

ـ أورد صاحب الوساطة صفحة ٩٢ بيتاً على نفس الروي والقافية والوزن التالي: لم يرد في الديوان، وهو البيت:

فَـغَـدا أسـيـراً قـد بَـلَـلْـتَ ثِـيـابَـهُ بِـدَم وبَـلَّ بِـبَـوْلِـهِ الأفـخـاذا

ولقد صوّر الشاعر مدى شدّة خوف يزداذ وهو في نزعه، فالدماء تُغطيه، ومن شدّة فزعه وجبنه لم يُمسك نفسه فبال.